تاريخ الإرسال: 2016/04/06 - تاريخ القبول للنشر: 2016/05/19 تاريخ النشر: 2016/06/28

مدخل إلى الحجاج بحث في تعالق الحدود

عمر رتيمي
جامعة الجلفة

خليفة محمد
جامعة الأغواط

تقديم :

لم يعد الحجاج مفهوما بلاغيا أو فلسفيا بحتا ، بل صار موجودا بتقنياته وآلياته في معظم الخطابات الإنسانية ، وأصبح وصف الخصائص الإقناعية للخطاب وتقويمه من أهم ما تبحث فيه نظريات التواصل ، ولم تبق الرغبة مقصورة على إنتاج الخطاب فحسب ، إنما انتقلت إلى دراسة خصوصياته ، مما جعل الفكر البلاغي المعاصر يسلط الضوء على عمليات البناء والتعليل والفهم و التأويل ودورها في تحريك المعنيّين والتأثير عليهم ومدى تفاعلهم مع ما يوجّه إليهم .

من هنا ركز العديد من الباحثين والنقاد جل اهتماماتهم على البلاغة بوصفها علما واسعا للمجتمع « وليست محصورة في البعد الجمالي بشكل صارم ، أمثال رولان بارت وجيرار جينيت وكبدي فاركه ومجموعة مو وبيرلمان وتودوروف...الذين جعلوا من البلاغة مبحثا علميا عصريا «[1] ، بل وقد أجمعوا على أنها « الأفق المنشود والملتقى الضروري للتداولية وعلم النص والسيميولوجيا ، وهي النموذج المؤمّل عليه للعلم الإنساني في إطاره الشامل الجديد «[2] .

إن هذا الاهتمام البالغ بالبلاغة المعاصرة ومحاولة إعادة تشغيل آلياتها صرفا لها عن الجانب المعياري القديم المتمثل في فرض القواعد ودفعها إلى رصد الوقائع ، يجعلنا نقف عند أهم مشاغلها وهو المظهر الحجاجي،فلا يخفى على أحد أن التواصل الإنساني في أغلبه إن لم يكن في كله تواصل إقناعي، يسعى كل طرف فيه إلى جعل الطرف الآخر يتقلد رأيا محددا ويصير من المدافعين عليه ، بل وأصبح الحجاج الحقل الذي تصبّ فيه مختلف العلوم الإنسانية والمساهم في صياغة خطاباتها إسهاما كبيرا .

1 ـ ماهية الحجاج :

إن الحديث عن الحجاج ينطلق من مسلّمة مفادها أن كل النصوص والخطابات التي تنجز باللغة الطبيعية حجاجية ، إنما مظاهره وطبيعته ودرجته تختلف من نص إلى نص ومن خطاب إلى خطاب [3] .

لهذا يُعدّ الحِجاج الحلقة الضرورية التي تمر عبرها كل العلوم الإنسانية سواء كان من الجهة التي يراعى فيها الإطار الحالي للمتكلمين ، أو من الجهة التي يراعى فيها أنه بنية نصية .

لقد ناقش الفلاسفة واللغويون موضوع الحجاج وألّفوا في ذلك كتبا عديدة ترصد التوجه الحجاجي فلسفيا

نصيا كان ، أو لفظيا بحسب زوايا التناول .

من هنا سنتطرق إلى تحديد أهم المفاهيم لهذا الموضوع كونه يشكل فتحا بلاغيا جديدا ، خاصة ما يتعلق بالتساؤلات الآتيةّ :

أ – ما الحجاج ؟ .

ب– ما مدى تعالق الحجاج بالجدل وبالخطابة وبالسفسطة ؟ .

ه- إلى أي مدى يمكن اعتبار الحجاج و البرهان من الثنائيات التي يتحدد فيها الحجاج طرفا قريبا أو بعيدا بالطرف الآخر؟ .

أ/ ما الحجاج ؟

جاء في لسان العرب»...وقيل الحجة ما دُفع به الخصم ، وقال الأزهريّ : الحجة الوجه الذي يكون به الظفر عند الخصومة ، والحجاج : التخاصم ، وجمع الحجة حجج وحجاج ، وحاجّه محاجّة أي نازعه الحجة ، وحجّه يحجّه حجّا : غلبه على حجة له، وفي الحديث : « فحج آدم موسى أي غلبه على حجته «، واحتج بالشيء: اتخذه حجة ، وقال الأزهري :إنما سُميت حجة لأنها تحج أي تقصد لأن القصد لها وإليها...والحجة: الدليل والبرهان «[4] .

ولئن كان الحجاج بهذا المعنى عموما في المعاجم العربية ،وفي المتداول من النصوص والخطابات، فإن مرادنا منه فيما يتعلق بحدِّه الاصطلاحي كونه ينتمي إلى عائلة الأفعال والسلوكات الإنسانية الهادفة إلى الإقناع الذي يتطلب اختيار اللغة ،ومراعاة المخاطب والسياق ومدى تأثير ظروف الحال والمقام ، وبذلك تختص الحجة بوجهين[5]:

- إفادة الرجوع أو القصد : فهي مشتقة من الفعل (حج)ومن معانيه(رجع) ، إذن فالحجة أمر نرجع إليه أو نقصده ، ولا يكون ذلك إلا لحاجتنا إلى العمل به .
- إفادة الغلبة : فالفعل (حج)بمعنى(غلب) ويكون مدلوله إلزام الغير بالحجة فيصير بذلك مغلوبا ومن هنا يتبين أن الحجة ترد في سياق الجدل والمناظرة .

كما يعرّف الحجاج في الكثير من الدراسات الحديثة بأنه :» الآلية الموجهة إلى جعل بعض النتائج مقبولة من قبل جمهور معين في ظرف معين «[6]،

أي وسيلة من وسائل الإقناع التي يتوسل بها المتحدث التأثير في المتلقي ، أو دحض آرائه ، أو حتى تغيير سلوكه ، ولا شك أن هذا المدلول تتقاسمه مصطلحات عديدة من حيث الحقل الدلالي، من قبيل : المجادلة ، المساجلة ، المناظرة...وغيرها ، لأنها تتخذ من الحجة وسيلة لها وإن اختلفت المواضيع والطرائق .

ولقد أورد بعضهم للحجاج أهمية في التفرقة بين الحق والباطل ، وحاجة الناس إليه فيما يصلح معاشهم ومعادهم ، يقول أبو الوليد الباجي في منهاجه :» وهذا العلم من أرفع العلوم قدرا وأعظمها شأنا ، لأنه السبيل إلى معرفة الاستدلال ، وتمييز الحق من المحال ، ولولا تصحيح الوضع في الجدل لما قامت حجة ولا اتضحت محجّة ، ولا عُلم الصحيح من السقيم ،ولا المعوج من المستقيم «[7].

ويذكر بعضهم حقيقة الحجاج بأنها « درس تقنيات الخطاب التي تؤدي بالذهن إلى التسليم بما يعرض عليه من أطروحات ، وأن تزيد في درجة التسليم محاولة إذعان العقل لما يطرح عليه من أفكار، ليمر الخطاب الحجاجي في تشكله بالأدوار التالية .

- مرحلة مصادر الأدلة .
- مرحلة ترتيب أجزاء القول .
- مرحلة الصياغة الأسلوبية .
- مرحلة الإلقاء »[8] .

وهي الأسس والأصول التي أرسى عليها أصحاب النظرية الحجاجية الحديثة جهودهم ممثلة في (البلاغة الجديدة أو الخطابة الجديدة) كما هو الحال عند بيرلمان وتيتيكاه وغيرهما .

ب/الحجاج والجدل والخطابة والسفسطة :

من بين ما يعرض له الحجاج في الدراسات الحجاجية تعالقه بالمنطق في حدوده الضيقة ،أي لا يبرح حدود (البرهنة والاستدلال) ، وتعالقه بالجدل والخطابة والسفسطة ، وهو المجال الواسع لأن الأمر فيه متعلق بالتقنيات البيانية الباعثة على إذعان المتلقي ، وهو ما يصرف دارس موضوع الحجاج إلى البحث عن علاقته بالجدل من جهة، وبالخطابة من جهة ،وبالسفسطة من جهة ثالثة .

- الحجاج والجدل :

بالنظر إلى مدى ورود الحجاج والجدل مترادفين في اصطلاح العديد من القدامى إلا أن هذا الترادف يضيق مجال الحجاج ويغرقه في الجدل ، وهو الأمر الذي عرض له الباحث عبد اللّه صولة مفضّلا « للجدل من حيث هو صناعة منطقية ومعرفة بالقواعد والحدود والآداب في الاستدلال والتي يُتوصل بها إلى حفظ رأي أو هدمه ، سواء كان ذلك الرأي في الفقه أو غيره »[9]،

والملاحظ في الدراسات العربية الحديثة استمرار هذا الترادف في الاصطلاح ، وهو ما يستدعي معرفتنا للجدل في شكله الذي تصوره الفلاسفة اليونانيون (سقراط وأفلاطون وأرسطو)[10]عند عرضهم للأصول التي ينبغي أن يقوم عليها التعامل القولي في المجتمع عموما ،إذ يختلف الجدل عند أرسطو اختلافا يسيرا عن العلم ويمثل ذروة العلوم وتتويجها فهو» صناعة ملوكية « على حد قوله ، وبهذه الصناعة يمكن أن نبلغ الحقيقة ، هكذا فالجدل عنده باقترابه الشديد من العلم وبوضعه المتميز في ذروة الصرح الفلسفي يختلف عن الممارسة الجدلية عند سقراط التي هي منهج في الحوار والمساءلة والاختبار الذي لا يؤدي بالضرورة إلى معرفة الحقيقة ، إنما للجدل الأرسطي صلة بالممارسة السقراطية ، فهو لا يفضي إلى الحقيقة دائما ، بل يجعلنا نقترب منها أكثر ما يمكن لانبنائه على (المشهورات) .

أما الجدل الأفلاطوني فهو منهج في الفكر والقول جميعا يقوم على عمليتين هما عملية(تأليف)وعملية(تقسيم أو تفريع) ، وهي ما سماه بعض الدارسين بـ [11]:

- الجدل الصاعد : وبه يرتقي الباحث من مفهوم إلى مفهوم ، ومن قضية إلى قضية ،حتى يبلغ أكثر المفاهيم

عموما ويبلغ المبادئ الأولى، وبه يتجاوز عالم المحسوس إلى المثل .

- الجدل النازل : وبه يفرّع الباحث ما انتهى إليه في العملية الأولى إلى أقسامه وأجناسه ولوازمه على نحو تدريجي .

ولئن كان الجدل بهذا الطرح في التراث الفلسفي اليوناني ،فإنه في تراثنا العربي الإسلامي يوافق (علم الكلام أو منهج المناظرة) ، ذلك أنه يوافق في معناه تقرير الخصم على ما يدّعيه من حيث أقرّ حقا كان أو باطلا ، أو من حيث لا يقدر الخصم أن يعاند مجادله لاشتهار مذهبه ورأيه فيه ، ولقد بسط الباحث (طه عبد الرحمن) في حديثه عن تجديد الاعتبار لعلم الكلام ومكانة المناظرة في الإنتاج الإسلامي مسألة(المناظرة الجدلية) بكل الوجوه التي « ترقى بها المعرفة الإسلامية إلى مستوى اليقين ، هذا اليقين العملي وليس اليقين النظري الصوري ، الذي يبحث عنه المنطق، ولا شك أن اليقين العملي أقوى على التوجيه وأقدر على التغيير من اليقين النظري الذي لا ينتفع به ويظل حبيس القول والقرطاس»[12] ، ويقول ابن خلدون في مقدمته:» أما الجدل وهو معرفة آداب المناظرة التي تجري بين أهل المذاهب الفقهية وغيرهم،فإنه لما كان باب المناظرة في الرد والقبول متسعا،كان كل واحد من المتناظرين في الاستدلال والجواب يرسل عنانه في الاحتجاج «[13].

وإذا كان مدار الكلام في الجدل هو(المشهورات) فقد حدد الفلاسفة هذه الأمور المشهورة بخمسة يقع فيها الجدل ، هي[14] :

1- المشهورات الخلقية والعملية مقيدة بشروط ترفع الاستشفاع عن التساؤل حولها .

2- القضايا التي من شأنها أن تبرهن في العلوم ولكن تكون مما يمكن إثباته أو إبطاله مع ظهور ذلك نافعا في العلوم النظرية والعملية والمنطقية .

3- القضايا التي يختلف فيها الفلاسفة والتي تكون جليلة القدر لشرفها أو لشرف المقدمات المثبتة لها أو لصعوبة الوقوف على أسبابها أو لصعوبة الطرق إلى مصادفة براهينها أو لنفعها العلمي للجمهور وانتفاعه بمعرفتها .

4- القضايا التي يختلف فيها الفلاسفة حتى وإن كانت من المسائل الهينة القليلة التي يمكن للإنسان أن يقف على الصواب فيها بسهولة ، إنما لا ينبغي أن يكون التشاغل بها كبيرا.

5- الأقاويل المبتدعة المشتقة وهي المضادة من جهة لأراء مشهورة عند الفلاسفة ومن جهة أخرى مشدودة بقياساتها التي تثبتها .

من هنا ، فهذا الترادف الحاصل بين مصطلحي (الجدل والحجاج)الموافق لكل تركيب عطفي بينهما في التآليف العديدة عند القدامى والمحدثين ، يشير إلى ضرورة التنبيه إلى حقيقة الاختلاف بينهما الكامن في بنية الحجاج في الجدل فهو حجاج بالقياس في أغلب الأحيان بل» إن الحجاج الجدلي ذو مجال فكري خالص مرتكزاته عقلية خالصة،لا يخاطب المحتج لقضية أوموقف أو رأي في متلقيه سوى العقل ، الأمر الذي يجعل الحجاج أوسع من الجدل ، فكل جدل حجاج وليس كل حجاج جدلا «[15] .

- الحجاج والخطابة :

أخذ موضوع الخطابة قسطا كبيرا من الاهتمام في التراث اليوناني القديم ، و كان مجالا فسيحا لانشغال الكثير

من الفلاسفة واللغويين و البلاغيين ، حتى إن مشروع إحياء البلاغة أو مفهوم الآليات البلاغية الجديدة استمد أسسه وأصوله من الخطابة اليونانية وبالتحديد من التصور الخطابي الأرسطي .

أراد أرسطو إخراج الخطابة من الأزمة الشكلية التي تردّت فيها مع السفسطائيين وحدد لعملية الإنقاذ هذه مستويين أحدهما معرفي لغوي حجاجي ، والثاني اجتماعي إنساني ، مبينا أن الصناعة القولية عنده شرط لا غنى عنه في الاجتماع البشري يقصد بها(صناعة الخطابة والحجاج)اللذان يقومان على ركنين أساسيين هما القول والقائل وما يتصل بهما من شروط [16] .

كما رصد أرسطو في بناء الخطابة ثلاثة عناصر هي:(وسائل الإقناع أو البراهين ، الأسلوب أو البناء اللغوي،وترتيب أجزاء القول) أي كما وضحها هنريش بليث[17] في المكونات النصية (الإيجاد والتنظيم والعبارة) وغير النصية (الذاكرة والإلقاء) ، لتكون بذلك فرعا من الجدل وفرعا من علم الأخلاق بل لتدعى بحق(علم السياسة).

وهنا ينبغي التنويه بمكانة (وسائل الإقناع والتأثير) التي صار بها أرسطو أستاذا لمن بحث بعده في موضوع الخطابة من القدماء ، واكتست نظريته في التأثير حسب الاحتمال وما يقبله الجمهور أو يرفضه ، أهمية كبيرة عنه الباحثين .

من هنا يمكننا القول أنه إذا كان إنتاج الحجاج في الجدل يستوجب استراتيجية حجاجية جدلية مفادها أولوية الاستدلالات المنطقية القياسية – دون اعتبار أخلاق السائل وانفعالات المجيب فإن « الحجاج في الخطابة هو محصلة أركان ثلاث : القول بما هو فكرة (اللوغوس) و(الأخلاق) أخلاق القائل و(الانفعال) انفعال المقول له ، ففي الخطابة خروج من البحث المنطقي المحض إلى البحث في علاقة القول بالأخلاق والسياسة «[18]

إن هذا الحديث عن صلة الخطابة بالجدل في المشروع الأرسطي يجعلنا نسلم بأنهما قوتان لإنتاج الحجج . فالحجاج إذن ، هو القاسم المشترك بينهما وإن كان نوع الحجة في الواحد غير نوعها في الآخر ، أو لنقل باختصار « إنه يوجد على الأقل حجاجان : حجاج جدلي وخطابي ، أما الحجاج الجدلي فمداره مناقشة الآراء مناقشة نظرية محضة لغاية التأثير العقلي المجرد ... وأما الحجاج الخطابي وهو حجاج موجه إلى جمهور ذي أوضاع خاصة في مقامات خاصة ...[فهو] ههنا ليس لغاية التأثير العقلي النظري وإنما يتعداه إلى التأثير العاطفي وإلى إثارة المشاعر والانفعالات وإلى إرضاء الجمهور واستمالته ولو كان ذلك بمغالطته وخداعه وإيهامه بصحة الواقع « [19] .

- الحجاج و السفسطة :

لقد شهدت أثينا في القرون الخمسة الأولى قبل الميلاد صراعا شديدا بين الفيلسوف والسفسطائي تعددت أسبابه ونواحيه ووظائفه ، لكن غالبا ما تجمع في (مسألية القول) ومطاردة قول لقول .

من هنا فقد أذكى التيار السفسطائي البحث الفلسفي بالدفع إلى دراسة القول الحجاجي ونشر المسألية الفلسفية ، وكان الحجاج بمثابة الخميرة التي تشكلت في جوانب سياسية منها ، فلسفة أفلاطون وأرسطو في الرد على السفسطائيين [20] .

لقد ظلت صفة (سفسطائي) مرادفة لـ(الحجاج الزائف أو المعوج)[21]عند الغربيين وعند العرب في كل الثقافات التي نهلت من الفكر الإغريقي طيلة القرون الماضية إلى غاية القرن الماضي أين أراد رواد الفكر الغربي مراجعة الأصول الفكرية السفسطائية لاعتبارها تيارا فكريا وجد في ظرف معين .

ومهما يكن من أمر فلا شك أن الدراسة الإغريقية القديمة للحجاج عموما تتنزل في إطار الصراع القائم بين الفيلسوف والسفسطائي في(صناعة القول) ،إذ المبدأ عند السفسطائي هو إقناع الخصم بما يعتقده المتكلم بغض النظر عن صحة هذا الاعتقاد والغاية مما تفرضه المصلحة ، فجعل من الإنسان مقياسا لكل شيء ولم تعد هناك (حقيقة) منشودة بل لا بأس من مخاطبة الجمهور بما يروق له من حقائق تضمن نصرته وتأييده وموالاته ، وصار العمل عند السفسطائي منصبا على تطوير كل ما يكفل هذه الحقائق من الاهتمام بالخطاب وتقنياته اللغوية وجوانبه الجمالية ، وأصبح بذلك السفسطائيون في نظر الفلاسفة خصوصا أفلاطون وأرسطو أعداء للعقل والحقيقة ، فصوّرهم أفلاطون « قوما يجتمعون على تظليل الشباب ونشر الأوهام والأغاليط بين الناس عمدتهم في ذلك أسلوب التهييج العاطفي وشحن المشاعر لكي تغيب كل ملكات التفكير الهادئ والمتزن »[22]وانتقلت السفسطة مع أرسطو كحركة فكرية اجتماعية إلى ظاهرة خطابية لمعرفة الحيل التي يلجأ إليها السفسطائي حتى يكون المناظر بعيدا عن الوقوع في شراكه مميزا بين الأقيسة السليمة والمقدمات المشروعة وبين غيرها ، ولقد أسهم من بعده في وضع السفسطة والخطابة في سلة واحدة بكل ما اجتمع في التقاليد الفكرية التي سادت عصر النهضة و الأزمنة الحديثة ، أمثال : فرنسيس بيكون ، جون لوك ، مناطقة بورويال... وغيرهم [23].

أما الفكر الحجاجي المعاصر فيعتني بمظاهر كثيرة لها الحضور القوي في العلاقات الإنسانية كـ(الخديعة ، الحيلة ، الكذب ، الغلط...) وهي مظاهر تنعكس بوضوح النشاط القولي مدرجةً تحت تسمية السفسطة التي تقابلها من جهة الخداع الذي يتم بواسطة القول.

ولقد أثار السفسطائيون ممارستهم للحجاج بتصورهم لعلاقة القول بالوجود وبالمعرفة وبالنافع ولعلاقة الإنسان بالإنسان ، فمن بين ما طرقوه مسالك توجيه الاحتمال في الحجاج بحسب(النافع)، ومفهوم الاتجاه في القول (L›orientation) هو المفهوم الرئيس في نظريات الحجاج المعاصرة على اختلاف زواياها في التناول ، إنما الاختلاف بينها هو في اعتبار المستوى الذي يبنى فيه (الاتجاه الحجاجي).[24]

كما هو حاول الكثير من الباحثين أن يؤكدوا أن الملكة الحجاجية لن تكتمل إلا بالانفتاح على درس السفسطة ، أي تلك الأحوال التي يخرج فيها الحجاج عن الوجه النموذجي ليتحول إلى ممارسة باطلة منتجة لما سميناه سابقا بـ(الحجاج الزائف أو المعوج) ، من هنا « برز في الدرس الحجاجي المعاصر توجه يصطلح عليه بتوجه مقاربة السفسطة ، الذي أصبح يلقى عناية كبيرة ... يعدّ عنصرا مكملا للدرس الحجاجي لا يتم هذا الدرس إلا به ، لأن البحث في السفسطة يمثل بعبارة – كرسيتيان بلانتين– الوجه السالب للحجاج مقابل الوجه الموجب الذي يدرس النشاط الحجاجي السليم ، فالدراسة التحليلية النقدية للسفسطة هي بمنزلة تكملة للنظرية الحجاجية العامة »[25] .

ج /الحجاج والبرهان :

يتداخل مصطلح الحجاج المقابل لمصطلح (Argumentation) بالفرنسية ، مع البرهنة المقابل لمصطلح (Démonstration) خصوصا عند غير المختص ، لكن يختلف الحجاج عن البرهنة، فهو أشمل وأوسع منها ما دامت محافظة على حدها المنطقي في كونها:»من علوم المنطق و[هي] بوجه عام استنتاج قضية من قضية أو عدة قضايا أخرى أو الوصول إلى حكم جديد مغايرللأحكام التي استنتج منها، ولكن في الوقت نفسه لازم لها متوقف عليها «[26] وهو ما يوافق تماما الاستدلال لذلك جعلت أغلب الترجمات البرهان مرادفا للاستدلال .

ومن هنا يعد البرهان نقيضا للحجاج الذي منطلقه في الأساس الحرية أو الحوار ، إذ الطريقة التي تتم بها البرهنة تتمثل في عرض الموضوع ثم التدليل وهو ما يفضي إلى تفرقة بين المسألة والبرهان ، بينما الحجاج لا

يخضع لهذا الترتيب .أما من حيث مجال كل منهما فمجال البرهنة هو المنطق أو اللغات الاصطناعية الرمزية بشكل عام،ومجال الحجاج هو الخطاب واللغات الطبيعية .

وللتوضيح أكثر حول نقاط الفصل بين مجالي الحجاج والبرهان ، يورد الأستاذ أبوبكر العزاوي مثالا[27] :

كل إنسان فان

زيد إنسان

زيد فان

فالنتيجة التي يؤدي إليها هذا الاستدلال نتيجة حتمية ضرورية لأن الأمر متعلق ببرهنة أو باستدلال أو بعبارة أخرى بقياس منطقي .

أما قولنا :

الجو غائم

سينزل المطر.

فالنتيجة الواردة نتيجة احتمالية ، فوجود الغيوم في السماء شرط كاف فقط لتحقيقها ولا يمكن اعتباره شرطا ضروريا ، فهو مثال يندرج في الحجاج .

فمجال الحجاج إذن هو المحتمل وغير المؤكد والمتوقع ، بينما مجال البرهان أو الاستدلال فهو اليقيني ، وما نجده في الخطاب الطبيعي هو الحجاج وليس البرهان إذ ليس الخطاب الطبيعي خطابا برهانيا يحترم مبادئ الاستنتاج المنطقي أو البرهنة الرياضية ، كما لا يستهدف البرهان شخصا معينا ولا يهتم بأسباب إنشاء الخطاب وفهمه ، في حين تتطلب المحاجة طرفين وتراعي المقام وشروط الخطاب .

وفي إثر عرض أرسطو لمقابلة (الضروري/الممكن) في الأقاويل ، بسط الكثير من المقابلات الفرعية لدراسة البرهان والحجاج ، مثبتا أن «بين البرهان والحجاج تشابه في الصورة فكلاهما حركة انتقال ضرورية من مقدمات إلى نتائج... فالبرهان ضروري في صورته اضطراري في نتيجته ، أما الحجاج فضروري في صورته غير اضطراري في نتيجته ، وعدم الاضطرار هذا هو المشرّع لقيام حجاجات مضادة «[28]، أي أن الحجاج أدلته تتراوح بين الضعف والقوة ويوصلنا لأكثر من نتيجة كما أنه لا ينغلق على نفسه لاحتمال إضافة دليل أو أدلة جديدة ، بينما البرهان نتائجه يقينية، وبين أنه « لا يمكن انعقاد البرهان في مجال الممكن ، بينما يمكن انعقاد الحجاج في مجال الضروري «.[29]

ولقد ميز العديد من الباحثين المحدثين هذا الاختلاف من حيث الصدق والكذب ، فيؤكد (روبير بلانشي) أن البرهنة تتعلق بالصدق والكذب وتهدف إلى إثبات قضية، بينما يهدف الحجاج إلى التأثير على الرأي « ففي البرهنة شيء لا يتأثر بالأشخاص ولا بالزمان ، أما المحاجة على العكس فهي تتوجه إلى إنسان لإقناعه «03 ومن حيث التأثير إذ « البرهنة توجب إذعان العقل أما المحاجة فهي تستهدف إذعان الإرادة «13، وهو ما يقرّ به أيضا بيرلمان في مشروعه (الخطابة الجديدة) .

2 ـ بين التداولية والحجاج :

يندرج الحديث عن التداولية والحجاج في سياق التعاريف المعاصرة للبلاغة التي تمثل « تداولية في صميمها ، إذ أنها ممارسة الاتصال بين المتكلم والسامع بحيث يحلان إشكالية علاقتهما مستخدمين وسائل محددة للتأثير على بعضهما «[32] ، بهذا ينظر إلى الحجاج على أنه باب رئيسي في المباحث التداولية لأنه يشكل محصلة لتيارين نابعين من أصلين مختلفين يمثل الأول « فلسفة اللغة « ويمثل الثاني التيار المتمخض عن اهتمام اللسانيين بالتخاطب وذاتية المتكلم وخصائص الخطاب ، ولأن أهم القضايا التي يستقطب نتائجها من (لسانية وبلاغية واجتماعية ونفسية وتقنية...) تصبّ بعمق في الحقل التداولي ، فإن الحجاج يعد النظرية التي تحتل بؤرة التداخل المعرفي الإنساني .

إن التداوليات بالرغم من اتساع مجالها وعدم ضبط حدودها إلا أنها تدعم انتماء النص الحجاجي إلى مباحثها لما ينطوي عليه من اهتمام بمقاصد المتكلمين وأفعال اللغة وظروف السياق، ومهما يكن من أمر فالتداولية بوصفها «العلم الذي يعنى بالشروط اللازمة لكي تكون الأقوال اللغوية مقبولة وناجحة وملائمة في الموقف التواصلي الذي يتحدث فيه المتكلم «[33] .

فهي تميز الخطاب الحجاجي بخصائص بنائية تواصلية يختلف بها عن غيره من الخطابات ، والذي يكرس هذا التميز خضوعه لشروط القول والتلقي والمقام والرغبة في التأثير والفعل.

ومن بين الجهود العديدة التي أرادت أن تؤكد مدى التداخل المعرفي للحجاج والتداولية فيما سُمّي بـ(التداولية الحجاجية) أو (الحجاج التداولي) بحوث فاركه كيبيدي في كتاب (البلاغة والأدب) في اتجاه المقام الأدبي ، وبحوث(هنريش بليث)في كتاب (البلاغة والأسلوبية) في اتجاه السيميائيات التداولية[34].

وهي بحوث أراد بها أصحابها مراعاة إعادة الاعتبار للحجاج تضييقا للهوة بينه وبين البلاغة كونها «الآلية التي يتوسل بها منتجو الخطابات والنصوص توصيل آرائهم وإحداث التغيير بها، وهذه الآلية قد تؤثر وتستميل وتُمتع ولكنها لا تقنع وتفحم إلا إذا تلاحمت مع الحجج والمحاجة»[35] ، ومن هنا يمكننا وصف هذا الجهد البلاغي النهضوي المتراكم بأنه راجع إلى – كما بيّن هنريش بليث– «الأهمية المتزايدة للسانيات التداولية ونظريات التواصل...في مجال وصف الخصائص الحجاجية للنصوص وتقويمها...إذ لم يعد الهدف الأول للبلاغة هو إنتاج النصوص بل تحليلها. «[36]

تتجسد أهم المباحث التداولية في الحجاج في أشكال عديدة ، نشير إلى اثنين منها إشارة بسيطة :

أ/ الدور الحجاجي لأفعال الكلام :

إن من أهم الحقول الكبرى للتداولية نظرية(الأفعال الكلامية) التي أراد بها أصحابها (ج.أوستين وَج.سيرل) إعطاء مكانة كبيرة لدور الفعل الكلامي في نقل المعنى من مستوى التلقي إلى العمل والتجسيد ، مؤسسين تعاضدا قويا للبعدين الإفهامي والدلالي في عملية التواصل ، لأن فيهما ومنهما يتولد التعامل الحجاجي مع الخطاب لحظة إنشائه ومع مستقبله عند تأويله[37] ، وهو الأمر الذي يبين أبرز الوظائف التداولية المرتبطة بقصد المخاطب للفعل الكلامي وهي وظيفته الحجاجية التي تزيد من فاعليته الإنجازية ولا سيما المرتبطة بوظيفتي التأثير والإقناع في الكثير من مقامات التخاطب.

وإذا كانت وظائف الفعل الكلامي موصولة بمبحث الحجاج عموما ، فإن الاتصال به متحقق – على الأخص – في قيمتي النجاح والفشل ، اللتان قيّد أوستن بروزهما بالفعل التأثيري تحديدا .

إن من بين المفاهيم الأعلق بمجالات تداولية صريحة للفعل الكلامي مفهوم (متضمنات القول) ، ذلك أن كل فعل إقناعي يقوم على افتراضات مسبقة بشأن عناصر مقام التواصل والتبليغ [38] .

وهكذا يمكن النظر إلى وظيفة الإقناع في الخطاب على أنها من أسمى غايات التداول الحجاجي، و التي تجسدها الطاقة الحجاجية للأفعال الكلامية رغم أنها محل انتقادات من عدة وجوه أبرزها [39]:

- من حيث نفاذية فعل الكلام : كما حاول (آلان بروندونييه A.Berrendonnies) أن يثبت أن الكلام نقيض العمل أو الفعل ، لأن ما ننجزه حين نتكلم هو مجرد أصوات وإيقاعيات تفصح عن الرغبة في نشاط ما .
- من حيث عدم التركيز على مصادر سلطة الخطاب ودورها الحجاجي:

إذ لا يمكن دراسة اللغة والبحث في فعاليتها وسلطتها داخل الكلمات ذاتها...إنما فحوى الخطاب وكيفية إلقائه يتوقفان على المقام الاجتماعي ، وهو نقد الفيلسوف الاجتماعي (ب.بورديو B.Bourdieu) .

مما سبق يبدو أن غرض الخطاب والاستراتيجية التخاطبية التي يتوخاها المرسل في خطابه هما اللذان يحددان الدور الحجاجي لأفعال الكلام في إثبات حجاجية فعل الخطاب من عدمها .

ب/الدور الحجاجي في الأبنية اللغوية :

إن البحث في البنى اللغوية للأقوال من أجل معرفة طاقاتها الحجاجية الملائمة لكل سياق هو الذي يتحدد من خلال نسقها وترابطها ، وهو ما جسدته بحوث (أ.ديكرو وَ ج.ك. أنسكومبر) في نظرية مفادها أن البنى الحجاجية ليست ذات طبيعة منطقية إنما لغوية في الأساس ، فالأمر متعلق بالطريقة التي بها نستطيع استعمال الملفوظ في خطاباتنا الحجاجية.

وبهذا يمكن القول أن استقرار الحجاج في الأبنية اللغوية يجعله من العمليات التداولية الدلالية وكذا التأويلية ، وهو ما يستجوب وجود تلازم بين الحجة والقول ، لأن الحجاج ههنا كامن في البنية اللغوية للخطابين [40] .

من هنا فتحقق الوظيفة الحجاجية مرهون بالمكونات اللغوية وطاقاتها الحجاجية ، إذ لا يمكن الوصول إلى النجاح الحجاجي إلا في ظل معرفة أوجه استعمال العوامل الأسلوبية واللغوية والروابط الحجاجية والمواضع المثلى لذلك الاستعمال.

ولئن كان هذا الطرح التداولي للحجاج منوط به تحقيق انسجام بين النتائج والمقدمات في أبنيته الكبرى ، فإن هناك من قدم نموذجا حجاجيا يقوم على انسجام ظاهره بين المقولات والمقتضيات ، لكن التمعن فيه يكشف خطأ الاستنتاجات المقدمة ، وهو ما يطلق عليه (الحجاج المجانب للصواب أو الحجاج المغالط) وقد تقوم المحاججة فيه على الإيهام والمغالطة في البنية المنطقية [41].

خلاصة القول في هذا الجزء من البحث ، أن الدور الحجاجي لأفعال الكلام يتحدد في كيفية دفع الألفاظ المخاطبين إلى إنجاز الأفعال المنطوقة ، ويتلخص الدور الحجاجي للأبنية اللغوية في حقيقة مفادها أن اللغة

تحمل بصفة ذاتية وجوهرية وظيفة حجاجية ، أي بعبارة أخرى هناك مؤشرات عديدة لهذه الوظيفة في بنية الأقوال نفسها .

خاتمة

خلاصة القول أنه ما كان لنا أن نعرف ماهية الحجاج في التصورات الغربية الحديثة منفصلا عما يتعالق فيه مع غيره من المفاهيم ' فما يميز الحجاج عن الجدل وعن الخطابة وعن السفسطة يفضي به دون شك إلى الحد المعقول والتام أو ما يعرف بالحد الجامع المانع ، بل هو الذي حدا بالمعاصرين من الفلاسفة واللغويين أن يجعلوه إعادة صياغة للبلاغة القديمة في ثوب جديد أو ما أسموه بالبلاغة الجديدة (أمثال بيرلمان وتيتيكاه ، وديكرو وأنسكومبر ...وغيرهم) .

والواقع أن المعنى الموسع للحجاج هو ما تثيره الخطابات الساعية في عمومها إلى تعديل السلوك أوالموقف عملا على ما يؤثر في المخاطب مهما كانت درجة تلقيه ، ومهما كانت طبيعة المنقول إليه ، وهو الأمر الذي جعل أغلب اللغويين واللسانيين الجدد يبحثون بجد عما تتغياه الممارسة البلاغية اليوم من اعتماد وسائل تأثيرية وإقناعية تخضع المتلقي لسلطة الخطاب ، لذا يمكننا أن نجعل هذه الدراسة فاتحة باب لمن أراد أن يكتنه مباحث الحجاج اليوم أوأن يسبر أغوار تفاصيله كما أعدها أهل الاختصاص من خلال ما يقدم في تصانيف البلاغة الجديدة .

المصادر و المراجع :

1 ـ الباجي (أبو الوليد) : المنهاج في ترتيب الحجاج – تحقيق . عبد المجيد تركي – دار الغرب الإسلامي ، ط/2 – 1978 ، لبنان .

2 ـ بلانشي (روبير) : الاستدلال ، ترجمة ، محمود اليعقوبي ، دار الكتاب الحديث ، 2003 ، الجزائر.

3ـ بليث (هنريش): البلاغة والأسلوبية– نحو نموذج سيميائي لتحليل النص – ترجمة : محمد العمري – دار إفريقيا الشرق/بيروت ، ط1/1999 ، لبنان .

4– ابن خلدون (عبد الرحمن) : المقدمة – دار الكتب العلمية – ط/1 – 1993 . بيروت – لبنان

5 ـ الدريدي (سامية) : الحجاج في الشعر العربي القديم من الجاهلية إلى القرن الثاني للهجرة – بنيته وأساليبه – دار عالم الكتب الحديث . ط/1 – 2008 ، تونس .

6 ـ الرشيد (الراضي): السفسطات في المنطقيات المعاصرة – التوجه التداولي الجدلي نموذجا – مجلة عالم الفكر ، ع/ 04 ، المجلد 36 ، جوان 2008 .

7 – الريفي (هشام) : الحجاج عند أرسطو – (ضمن عمل جماعي "أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم " كلية الآداب – منوبة – تونس . إشراف حمادي صمود – جامعة الآداب والفنون والعلوم الإنسانية – تونس – 1998) .

8 ـ صحراوي (مسعود) : التداولية عند العلماء العرب – دراسة تداولية لظاهرة الأفعال الكلامية في التراث اللساني

العربي ، دار التنوير ، ط 1/ 2008 ، الجزائر .
9 ـ صولة (عبد اللّه) : الحجاج ، اطره ومنطلقاته و تقنياته .(من خلال مصنف في الحجاج ، الخطابة الجديدة لبيرلمان وتيتيكاه/ ضمن عمل جماعي مشترك : أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم ، جامعة منوبة ، تونس) .
10 ـــــــــــ : الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية – دار الفارابي – ط/ 2 – 2007 ، بيروت ـ لبنان .
11 ـ طلبة (محمد سالم محمد الأمين) : الحجاج في البلاغة المعاصرة بحث في بلاغة النقد المعاصر – دار الكتاب الجديد المتحدة– ط 1/ ، 2008 ، بيروت ـ لبنان .
12 ـ عبد الرحمن (طه) : في أصول الحوار و التجديد لعلم الكلام – المركز الثقافي العربي ، ط 2/ 2000 ، الدار البيضاء ـ المغرب .
13 ـــــــــــ : اللسان والميزان أو التكوثر العقلي – المركز الثقافي العربي – ط/2/2006 ، الدار البيضاء – المغرب .
14 ـ العزاوي (أبو بكر) : الحجاج في اللغة ، (ضمن الحجاج مفهومه ومجالاته ، إعداد وتقديم ،حافظ اسماعيلي العلوي ، عالم الكتب الحديث ، ط1/ 2010 ، الأردن .
15 ـ فضل (صلاح) : بلاغة الخطاب وعلم النص – سلسلة عالم المعرفة – العدد/ 164 – الكويت .
16– ابن منظور : لسان العرب– دار صادر ، ط 1/ 2000 ، لبنان
17 ـ نعمان(بوقرة): المصطلحات الأساسية في لسانيات النص وتحليل الخطاب – دراسة معجمية – دار جدارا للكتاب العالمي – ط/ 1 – 2009 ، عمان/الأردن .
18 ـ النقاري (حمو) : من المنطق الجدلي الفلسفي إلى المنطق الحجاجي الأصولي – دار الأمان –ط/1 – 2005 ، الرباط ـ المغرب .

الهوامش

1 – هنريش بليث : البلاغة والأسلوبية– نحو نموذج سيميائي لتحليل النص – تر.محمد العمري – دار إفريقيا الشرق/بيروت –ط1/1999 – ص : 22 .
2 – صلاح فضل : بلاغة الخطاب وعلم النص – سلسلة عالم المعرفة – العدد/ 164 – الكويت . ص : 232 .
3 – أبو بكر العزاوي : الخطاب والحجاج – مطبوعات وزارة الثقافة المغربية/ط 1/ 2007 – المغرب . ص : 10 .
4 – ابن منظور : لسان العرب – ج3 – دار صادر/لبنان . ط 1/ 2000 – ص : 38 .
5 – طه عبد الرحمن : اللسان والميزان أو التكوثر العقلي – المركز الثقافي العربي – ط/2/2006 – الدار البيضاء – المغرب . ص : 137
6 – سامية الدريدي : الحجاج في الشعر العربي القديم من الجاهلية إلى القرن الثاني للهجرة – بنيته وأساليبه – دار عالم الكتب الحديث – تونس . ط/1 – 2008 – ص : 18 .

7 – أبو الوليد الباجي : المنهاج في ترتيب الحجاج – تح . عبد المجيد تركي – دار الغرب الإسلامي . ط/2 – 1978 – ص : 7
8 – نعمان بوقرة : المصطلحات الأساسية في لسانيات النص وتحليل الخطاب – دراسة معجمية – دار جدارا للكتاب العالمي – ط/1 – 2009 – عمان/الأردن . ص : 105 – 106 .
9 – عبد الله صولة : الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية – دار الفارابي – بيروت – ط/2 – 2007 – ص : 15–16 .
10 – هشام الريفي : الحجاج عند أرسطو – (ضمن عمل جماعي "أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم " كلية الآداب – منوبة – تونس . إشراف حمادي صمود – جامعة الآداب والفنون والعلوم الإنسانية – تونس – 1998/ ص : 81– 82 .)
11 – المرجع نفسه : ص 81 – 82 .
12 – طه عبد الرحمن : في أصول الحوار وتجديد علم الكلام – المركز الثقافي العربي – الدار البيضاء – المغرب . ط/ 2 – 2000 – ص : 70.
13 – عبد الرحمن ابن خلدون : المقدمة – دار الكتب العلمية – ط/1 – 1993 . بيروت – ص : 362 .
14 – حمو النقاري : من المنطق الجدلي الفلسفي إلى المنطق الحجاجي الأصولي – دار الأمان – الرباط – ط/1 – 2005 – ص : 234– 235 .
15 – عبد الله صولة : الحجاج في القرآن – ص : 16 – 17 .
16 – محمد سالم محمد الأمين طلبة : الحجاج في البلاغة المعاصرة بحث في بلاغة النقد المعاصر – دار الكتاب الجديد المتحدة – بيروت – ط/1 – 2008 . ص : 45 – 46 .
17 – هنريش بليث : البلاغة والأسلوبية – تر . محمد العمري . ص : 32 – 33 .
18 – هشام الريفي : الحجاج عند أرسطو . ص : 98 .
19 – عبد الله صولة : الحجاج في القرآن – ص : 17 – 18 .
20 – هشام الريفي : المرجع نفسه – ص : 51 .
21 – المرجع نفسه : ص : 54 .
22– الراضي الرشيد ، السفسطات في المنطقيات المعاصرة – التوجه التداولي الجدلي نموذجا – مجلة عالم الفكر ، ع/ 04 ، المجلد 36 ، جوان 2008 ، ص 132.
23 – الراضي الرشيد ، السفسطات في المنطقيات المعاصرة – التوجه التداولي الجدلي نموذجا – مجلة عالم الفكر ، ع/ 04 ، المجلد 36 ، جوان 2008 ، من ص 140 إلى ص 145 .
24 – هشام الريفي ، الحجاج عند أرسطو ، ص 61 .
25 – الراضي الرشيد ، السفسطات في المنطقيات المعاصرة ، ص 147 .
26 – عبد الله صولة ، الحجاج في القرآن ، ص 09 .
27 – أبو بكر العزاوي ، الحجاج في اللغة ، (ضمن الحجاج مفهومه ومجالاته ، إعداد وتقديم ،حافظ اسماعيلي العلوي ، عالم الكتب الحديث ، الأردن ، ط1 ، 2010 ، ص ، 56 – 57 .
28 – هشام الريفي ، الحجاج عند أرسطو ، ص 112 .
29 – المرجع نفسه ، ص 112 .
30 – روبير بلانشي ، الاستدلال ، تر ، محمود اليعقوبي ، دار الكتاب الحديث ، الجزائر ، 2003 ، ص 302 .
31 – المرجع نفسه ، ص 302 .
32 – صلاح فضل ، بلاغة الخطاب وعلم النص ، ص 97 .
33 – المرجع نفسه ، ص 20 .
34 – محمد سالم محمد الأمين طلبة ، الحجاج في البلاغة المعاصرة (تفاصيل أكثر ، ص 176 إلى 178) .
35 – المرجع نفسه ، ص 179 .

36 – هنريش بليث ، البلاغة والأسلوبية ، تر ، محمد العمري ، ص 22 .
37 – محمد سالم محمد الأمين طلبة ، المرجع السابق ، ص 186 .
38 – مسعود صحراوي ، التداولية عند العلماء العرب ، ص 65 .
39 – محمد سالم محمد الأمين طلبة ، الحجاج في البلاغة المعاصرة ، ص 187 إلى 190 .
40 – المرجع نفسه ، ص 194 .
41 – محمد سالم محمد الأمين طلبة ، الحجاج في البلاغة المعاصرة ، ص 196 .